دور الحديث وأثرها في حفظ العلم

للأستاذ الحسين وجاج

دور الحديث : عبارة عن مدارس خاصة ، ناتجة عن الخلافات المذهبية التي أحدثها التطور الفكري والتعليمي فى المجتمعات والمعاهد الاسلامية .. وهي ذات مكانة مرموقة فى نفوس المسلمين ، باعتبارها مدارس الحديث النبوي الذي هو العنصر الثاني للتشريع فى الاسلام من جهة ، وباعتبارها من جهة أخرى مراكز الثقافة الاصيلة الخيرة ، ومنابع العلم الاسلامي المطبوع بالطهر والعفاف ، والحامل معه فى طياته كل ما يبحث عند عالمنا اليوم من وسائل السعادة والطمانينة والحضارة والسلام.

وفى العصور الاولى من تاريخ الاسلام كان الطابع العام الذي يغلب على عقلية المسلمين وعقائدهم وأخلاقهم ، هو طابع القرءان والحديث بفضل نشاط الحركة العلمية القائمة فى معاهد السنة أولا ، وصمودها أمام التيارات الدخيلة ثانيا ، فرغم الانتصارات الجزئية التي تصادفها بعض الطوائف على حساب أهل السنة والجماعة ، فقد ظل الطابع السني هو السائد ــ كما قلت ــ الى ما بعد القرن الرابع الهجري ، وبعد هذا التاريخ ، بدأت الروح السنية تضعف تبعا لضعف سلطان الجماعة فى ميدان السياسة والعلم ، وأضحت حركات الطوائف وعقائدها تغزو عقائد الجماعة وأخلاقها فى الوقت الذي بدأت تغزو أراضيهم ، وتستقل بالسلطة من هنا وهناك .

فقد تعرض الجناح الشرقي من العالم الاسلامي لهزات عنيفة ، على

يد الاتراك ، ثم البوهيين ، سهلت على المغول والتتار غزو بغداد ، والقضاء على معالم سلطان العلم والسياسة بها سنة 656 هـ كما تعرض الجناح الغربي منه لهزات مماثلة على يد الخوارج ثم العبيديين الذين تغلبوا على شمال افريقية ومصر ، ومهدوا للصليبيين السبيل للتغلب على اجزاء مهمة من سورية قلب العالم الاسلامي السني .

وهذه الاحداث المتعاقبة على كيان سلطة المسلمين ، وما تركته من اثر سيء في صفوفهم هي التي حدت بالجماعة السنية الى التفكير في اسباب مقاومة الاحتلال والانحلال في المجالين الداخلي والخارجي ، وكان الذي يمثل ما تبقى من سلطان الجماعة باسم بني العباس في هذا الوقت ، هو نور الدين محمد بن زكي الشهيد .

وهكذا شاء الله ان يضع زمام السلطة السنية في يد الاسرة الزنكية الطاهرة ، وان يجعلها تفكر بجد في استرجاع مجد الجماعة والسنة ، وكان لا بد لهذا التفكير من أن يتناول الجبهة الداخلية والخارجية معا ، وان يحارب الاحتلال الخارجي بروح قوية ، واسلحة مفيدة ، ويقاوم الانحلال الداخلي ، بنشر ثقافة اسلامية اصيلة .

انشاء دور الحديث

ومن اجل جهاد الاعداء من التتار والصليبيين بدأ نور الدين يعد العدة العسكرية بتدريب الجنود ، ومن اجل مقاومة الشيعة الباطنية فكر في انشاء معاهد علمية خاصة ، لم يسبق لها مثيل في العالم الاسلامي ، من حيث تنظيمها والغاية منها ، وهذه المعاهد هي التي تحمل اسم « دور الحديث » واول دار عرفت منها ، ونظمت تنظيما خاصا ، هي دار الحديث النورية بدمشق سنة 569 هـ (1) ثم ظهرت بعدها دار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة 622 هـ ، ثم ظهرت بعدهما دار الحديث الاشرفية بدمشق سنة 626 هـ .

---

(1) المقريزي : الخطط ج 4 ص : 211 ـ صبحي الصالح : علوم الحديث ص : 73 .

وهذه الدور الثلاثة هي التي استبدت بالاسبقية التاريخية والشهرة العريضة فى العالم الاسلامي ، وان ظهرت بعدها دور للحديث فى مصر والشام والعراق وتركيا ، تسير على منوالها ، وتقتفي اثرها ، وتطبق برامجها ، مثل النبيهية والسكرية والظاهرية والمستنصرية والسليمانية وغيرها .

ولم تكن هذه الدور لتظهر لاول مرة فى الشام صدفة ، بل ذلك يرجع الى عدة أسباب : منها ان الشام هو مقر الاسرة النورية التي اعتنت لاول مرة بهذا النوع من المؤسسات . ومنها ان الشام واقعة فى الخطوط الامامية لمواجهة الصليبيين بفلسطين والشيعة . ومنها ان الشام يومئذ ديار الحنابلة والشافعية ، وهم أكثر المذاهب اعتناء بالحديث ، والممثلون للمذهب السني ضد الشيعة فى اطارية الاشعري ، والحنبلي الحديثي . ومنها الرغبة فى جمع شتات المذاهب السنية ، ضد العدو الخارجي المتمثل فى « الشيعة والصليبيين » ، وتناسي الخلافات بينها حتى لا يتكرر ما سبق ان وقع بينها فى العراق من العداوة التي ذهبت ضراوتها بسلطان العلم والسياسة معا (2) .

الغاية من انشاء دور الحديث :

ولم يكن العالم الاسلامي يوم أنشئت دور الحديث خلوا من المؤسسات التعليمية ، ولا فقيرا من العلم والعلماء ، بل كان زاخرا بالمدارس والمكتبات التي انشأها كل من السلاجقة والاتابكة بالعراق ، والفاطميون بمصر ، غير ان هذه المدارس على كثرتها كانت عقيمة ، ذلك لان روح التقليد والتفرقة غلبت على ابحاث العلماء فى هذا العصر ، سواء فى ذلك ما يتصل بالعقائد او الفروع ، فكل راى فى العقيدة له امام من المتقدمين، يتبع من بعض المتأخرين ، فينظر الى آرائه كلها على أنها الحق وحدها ، وكل مذهب فقهي ، له اتباع يتبعونه على أنه صواب كله دون غيره .

وقد توارثت الاجيال التحيز الفكري من القرن الرابع ، بسبب ما دار بين فقهاء الشافعية والحنفية ، ثم الحنابلة من الجدل الفقهي ، وما دار بين المعتزلة والاشاعرة والمانوريدية ، من الجدل الكلامي ، فنتج عن

(2) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص : 98 .

ذلك كله ان صارت ثقافة أهل هذا العهد عقيمة رغم سعتها ، ومن ثم اتجهت انظار الامراء الى انشاء نوع من التعليم ، يستمد روحه من النصوص الاصلية ، والعناصر الاساسية للاسلام ، فكان ما يسمى بدور الحديث .

وعليه فالغاية من انشاء دور الحديث ، كانت الرغبة في انعاش الثقافة الاسلامية في مناهجها أولا ، ثم بعث روح الحماس والجهاد في نفوس المسلمين لمقاومة الاعداء ثانيا ،وطرح ما كان قد ران عليها من غبار التكاسل والتواجل والتخاذل ثالثا (3) .

المنشؤون لدور الحديث :

واذا كانت الغاية من انشاء دور الحديث هي تقوية الجبهة السنية في مواجهة الجبهة الشيعية كما سبق ، فان الجبهة السنية في نفسها ، منقسمة الى أشعرية وحنبلية في العقائد ، وشافعية وحنبلية في الفروع ، ولهذا الانقسام انعكاس على تأسيس وانشاء دور الحديث نفسها (4) فبينما نرى دار الحديث النورية والكاملية والاشرفية ، تؤسس من طرف الامراء الزنكيين والايوبيين الاشاعرة نرى دور أخرى الى جانبها تؤسس من طرف علماء يمثلون الاتجاه الحنبلي في العقائد والفروع ، أضف الى هذا ما يحدث هناك من صراع بين أطراف الجبهة نفسها ، عند ما يراد ترشيح شيخ من الشيوخ للاشراف على دار من دور الحديث .

ومن هنا يتجلى ان المنشئين لدور الحديث ، مرة يكونون من الامراء، ومرة من العلماء والموسيرين ، وان الدافع الى انشائها ، وان كان في الظاهر الانتصار للسنة ضد الشيعة ، الا انه في باطنه ما يزال يحمل معه رواسب الخلافات القديمة ، على ان هذه الخلافات الجزئية لا تحول دون تسابق السنين العام نحوها انشاء هذه الدور من طرف السلاطين والامراء والاميرات ،والوزراء والعلماء والقضاة والتجار والاطباء والخدمة والعتفاء ، وغير ذلك ممن لاحظهم التوفيق .

(3) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص : 99 .

(4) محمد ابو زهرة : حياة ابن تيمية ص : 25 ـ 26 .

اهميتهـــا وبناءاتهـــا :

وتعتبر دور الحديث مؤسسات تعليمية عليا ، ذات اهميـــة كبـــرى ومقام كبير ، بحيث لا يتولى الاشراف عايها والتدريس الا من عرف بالعلم الغزير والفضل الكبير ، وشهد له بالتفوق على الاقـــران ، واستوفـــى شروط الواقفين والمؤسسين ، ووافق على توليته العلماء والملوك والامراء والناس أجمعون ، وهي تتمتع بالتقدير والاحتـــرام والاستقـــلال مثـــل الجامعات والاكاديميات العصرية وتتوفر على أنظمة داخلية ثابتة ، ومناهج تربويـــة مفيـــدة .

وهي الى جانب ما تهتم به مـــن خدمـــة الحديـــث ونشر علومـــه - استمرارا للجهود المبذولة قبلها للدفاع عنه والمحافظة - تقـــوم بدور فعال فى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوجيه وارشاد المسلميـــن وتكوين الاطر الصالحة للدفاع عن مقدساتهم ، وكسر شوكة اعدائهم ونشر مكارم الاخلاق بين مجتمعاتهم . وهي مثل غيرها من المعاهد العليا ، ذات بناءات مهمة ، ومصالح متنوعة ، تضم الى جانب مأوى الطلبة والمنقطعين، وقاعات الدروس والخزانات والمحاضرات والحفلات والضيوف ، مساجد للصلاة ومساكن بعض الشيوخ والموظفين الآخرين ، كل ذلـــك يتـــم فى مجموعات متصلة من الاقسام أو فى بنايات متقاربة ، يغلب عليها النظـــام التربوي والطابع الهندسي العراقي ، باعتبار انها امتداد لمدارس السنة بالعراق ، كالمدرسة النظامية التى تخرج منها الشيـــوخ الاوائـــل لدور الحديث أمثال ابن عساكر بدمشق وابن شداد بهاء الدين بحلب ، وباعتبار ان أكثر بناتها من أقوام نزحوا الى بلاد الشام من نواحي العراق لينشروا فيها الفن المعماري الواضح ، والمتمثل فى مدارسه المتعددات (5) .

ولظروف يرجع بعضها الى ألعزوبة والغربة ، وبعضها الى حب التفرغ للتدريس نجد بعض الشيوخ يسكنون فى دور الحديث أمثال ابن تيمية وابن رجب فى السكرية (6) وابن دحية فى الكاملية (7) والمزي فى الشقشقية

---

(5) الدكتور اسعد أطلس : مجلة المقتطف عدد 4 ، الصادر سنة 1944 .
(6) مجلة المجمع العلمي بدمشق ، المجلد الثاني عشر ، ص : 442 .
(7) عبد الله الهلالي الربغي : المفاخر السنية والمآثر المرضية 31 (مخطوط) .

قبل انتقاله الى الاشرافية ، والامام النووي وتقي الدين السبكي وغيرهما بالاشرفيـــــة .

ولكون هذه المدارس ربط المجاهدة العلمية ، كانوا لا يرغبـــون في السكنى بعيدين عنها فهن المدرسة والمسكن والمسجد والمتهجـــد فى آن واحد ، وكان تقي الدين السبكي شديد الاعجاب بسكناهـــا ، بحيـــث يخرج فى الليل الى ايوانها (8) فيتهجد هنا تجاه الاثر الشريف ويمـــرغ وجهه على البساط وينشد :

وفى دار الحديث لطيف معنى	على بســـط اصبـــو وآوى
عسى انى امس بحر وجهـــي	مكانا مسه قـــدم النـــواوي (9)

ميزتهـــا وميزانيتهـــا :

كانت الميزة الكبرى التي تميز دور الحديث عن غيرها من المدارس هي ظاهرة الاوقاف الخاصة بتمويلها ، ذلك ان العالم الاسلامي من قبل ، لم يكن يعرف المدارس أصلا ، وانما ظلت رحاب المساجـــد هي مجالس العلماء والمشايخ ، حتى جاء القرن الرابع فظهر نظام المدارس ، وأول ما ظهر بخرسان على يد بعض العلماء كأبي علي الحسيني وابن فورك وغيرهما ثم انتشر على يد نظام الملك ببغداد والموصل والبصرة ونيسا بور وهراة، غير ان تلك المدارس تختلف عن دور الحديث فى نظام دراستها العـــام ونظام الاتفاق عليها ، فمن حيث نظام التعليم ، كانت شاملة لجميع الفنون والعلوم المعروفة يومئذ ، ومن حيث نظام الانفاق كان يتولى الانفاق عليها، اما عالم موسير من ماله الخاص ، واما أمير حاكم من بيت المال العـــام وهذا بخلاف نظام دور الحديث ، فهي تعتمد اساســـا فى نفقاتهـــا على الاوقاف الخاصة التي يحبسها عليها المنشيء ، سواء كان أميرا أو غيـــره من المحسنين ، ويستفاد من نصوص الوقفيات وشروط المحسنيـــن أن هذه الدور كانت مستقلة فى ميزانيتها ، وذات تخصـــص محصـــور فى

---

(8) يقصد بالايوب فى اصطلاحهم ، ما يسمى اليوم بقاعة المحاضرات ، فهو مكان خاص بالدراسة والمناقشة ، انظر تاريخ التربية الاسلامية لاحمد شلبي ص : 67 .

(9) ابن السبكي : طبقـات الشافعيـة ج 5 ، ص : 165 .

منهاجها الدراسي ، ذلك لاستقلال اوقافها من جهة ، وتخصيصها باهل الحديث من جهة أخرى .

وعليه فان نظام المدارس العامة معروفا فى العهد السلجوقي ، فان نظام المدارس الخاصة قد ظهر الى جانبه فى العهد الزنكي والايوبي والماوكي ، فبقدر ما كان الاول عاما شاملا فى مناهجه ومصادر نفقاته كان الثاني خاصا فى مناهجه ونظام نفقاته .

غير انه لا ينبغي ان يفهم من نظام المدارس السلجوقية ، انها اهملت الحديث بتاتا كما انه لا ينبغي ان يسبق الى الاذهان، ان نظام دور الحديث فيما بعد ذلك مقتصر على الحديث دون العلوم الاخرى المعينة على فهمه، وانما كانت المدارس فى العهد السلجوقي تصرف عنايتها الكبرى الى دراسة الفقه وعلم الكلام ، فكانت بسبب ذلك ضعيفة الانتاج بالنسبة للحديث وعلومه ، والدليل على ذلك ثقافة المتأثرين بذلك النظام ، كالامام الجويني والغزالي والباقلاني والرازى وغيرهم ، ولما جاء العهد الزنكي ، وبعده العهد الايوبي ، عرف العالم الاسلامي نظاما آخر فى التعليم الى جانب هذا النظام الموروث ، ذلك هو نظام دور الحديث الذي ركز جهوده على الحديث وعلومه عكس الاول ، حتى أعاد الى السنة ذلك الازدهار الذي عرفته فى القرون الثلاثة الاولى حفظا ورواية ودراية واستنباطا .

ولو أطلنا التأمل فى هذا النظام ، لوجدناه فى الحقيقة انتصارا جديدا لتيار الحنابلة المحدثين على خصومهم الاشاعرة والماتوريديين كالذي كتب لهم أيام امامهم احمد بن حنبل على خصومهم المعتزلة ، سلف الاشاعرة فى الاعتماد على البراهين العقلية الى حد ما فى ميدان علم الكلام، ومع ذلك فقد كتب النصر لمنهج الاشاعرة فى الاخير ، ويتجلى ذلك فى المنهج الدراسي المتبع فى علم الكلام الى الآن .

ويتأكد استقلال هذه الدور فى ميزانيتها بنظام النظار المشرفين على تنظيم مواردها ومصاريفها ، وتنحصر مواردها فى ربع العقارات المحبسة عليها ، ويتمثل ذلك فى الدور والحوانيت والاسواق والحمامات والحقول والبساتين ، ويتولى الاشراف عليها موظف سام يسمى الناظر ، وتسند هذه النظارة عادة الى شيخ الدار نفسه ، او الى شيخ آخر مقتدر على حفظ الاوقاف وتنميتها وترميم ما اندثر منها ، فأما ضبط الموارد فقد

كان يتعرض كفيره ـ لعوامل النظام مرة ، ولعوامل الفوضى مرة أخرى ، فأحيانا تسند وظيفة الناظر على أوقافها الى العلماء والامناء الصالحين ، امثال الحافظ عبد الرحمن بن رجب (10) والامين الكبير حسن باشا (11) وغيرهما من الدين يخافون الله فتزدهر الدور بسبب ذلك وتنشط الحركة العلمية بها ، وتعمر بكثرة الواردين والصالحين ، وأحيانا تسند هذه النظارة الى بعض من لا اخلاق له من الناس ، فينهبها ويصرف ربع الاوقاف حسب هواه فتعجز الدور عن مواصلة سيرها وتصبح بعد حين خرابا ، وما أكثر ما أصيبت أوقاف هذه الدور بنظار ناهبين .

وأما ضبط المصاريف فأساسه القانوني راجع الى الشروط التي نص عليها الواقف فى وثيقة الوقف ، وهي شروط تتمتع باحترام كبير فى نظر الشريعة وعرف المسلمين ، لدرجة انهم ينزلونها منزلة النصوص التشريعية التي لا يجوز تغييرها ولا تبديلها .

تنفيذا لهذه الشروط نلاحظ النظار فى كتب الوقفيات يجددون وينفذون بدقة أوجه المصاريف المشار اليها فى شرط المحبس ، لذلك نراه لا يتعدى مثلا المقادير المخصصة لاجور الشيوخ والمعيدين والائمة والمؤذنين والمكافآت العلمية ومنح الطلبة وشراء الحصر والادوات والاوراق والحبر والاقلام والشمع والبخور واستنساخ الكتب ، وما خصص لاعداد الطعام للضيوف والواردين عليها ، والقائمين بالاطعام فيها ، وغير ذلك من أوجه الاحسان المنصوص عليها فى الوثيقة (12) والتي تختم فى الغالب بالعبارة التالية : « من بدل وغير فالله حاسبه » أو بالآية الكريمة : « فمن بدله بعد ما سمعه فانما ائمة على الذين يبدلونه » .

ومن الطريف جدا ان نجد فى بعض الوقفيات التنصيص على النصيب المخصص للانفاق على الديوك التي توقظ المؤذنين بالاسحار ، اهتماما منهم بالشؤون الدينية والعلمية .

---

(10) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد التاسع عشر ص : 442 .

(11) المحبي : خلاصة الاثر ج 2 ص : 25 .

(12) ابن بدران : منادمة الاطلال ص : 28 .

طبقـــات الموظفيـــن بهـــا :

يستفاد من بعض الوثائق التي عثر عليها ان هناك هيئة مركبة مـــن رجال التعليم والادارة تسير شؤنها ، كل فى دائرته الخاصة به ، وينتمي لهيئة التعليم بها أنواع من الموظفين ، منهم الشيوخ والمعيدون والقارئون والمستملون ، كما ينتمي الى هيئة الاداريين بها موظفون آخرون ، منهـــم النظار والقيمون والائمة والخزنة والمؤذنـــون والبوابـــون والوراقـــون والطباخون ، وأعلى هؤلاء جميعا فى السلم الاداري والاعتبار التعظيمي هم الشيوخ ، لانهم يمثلون دور العلم والمربين لجميع طبقات الشعب ، ومـــن اشهر الشيوخ الذين تولوا مشيخة دور العلم فى عصور مختلفـــة ، ابـــن عساكر وابن دحية وابن الصلاح والنووي وابن السكن وابن دقيق العيـــد وابن سيد الناس والمنذري والعراقي والذهبي والبرزالي وابن تيمية وابن كثير وابن حجر وغيرهم من رجالات العلم الصحيح والدين المتين والورع الصادق والجهاد المشهور .

شـــروط المشيخـــة بهـــا :

يعتبر مذهب المشيخة فى دور الحديث ، أكبر مذهـــب تعليمـــي وديني لان الشيخ هو الذي يترأس المجـــلس العلمـــي الـــذي يستشار ويستفتى فى الامور الصغيرة والكبيرة على السواء ، وأحيانا يتسامى هذا المنصب على منصب القضاء والامارة فى نظر المسلمين بوصفه المثـــل الحقيقي للسلطة الشرعية ، وقد سجل التاريخ للابطال من الشيوخ مواقف رائعة فى الدفاع عن الاسلام والمسلمين ولاهمية هذا المنصـــب علميـــا ودينيا واجتماعيا ، كان لا يصل اليد من العلماء الا من فـــاق أقرانـــه فى الحفظ والنباهة ، والتمكن من الحديث وعلومه ، حائزا بعلمه وسلوكـــه رضى الجميع . مستوفيا الشروط التي يشير اليها الواقف فى وثيقـــة التأسس للدار .

ومن الشروط العلمية لهذه المشيخة ، ان يثبت علميا تمكين المرشح من علوم الحديث واستحضار متونه ، ومن أجل ذلك يلجأون الى اختبـــار الشيخ قبل ترشيحه فى ملأ من الناس بأساليب كثيرة فى طليعتها مجموعة من الاحاديث وقلب أسانيدها على غرار ما امتحن به الامام البخاري شيخ

المحدثين ، وقد امتحن ابن دحية المحدث المغربي من طرف الايوبيين بمثل ما امتحن به البخاري ، فأثبت للحاضرين امامته فى الحديث كما أثبتها البخاري لاهل بغداد .

ومن الشروط الاجتماعية والطائفية لهذه المشيخة استراط ان يكون الشيخ أشعريا (13) اذا كان المؤسس اشعريا ، واشتراط ان يكون حنبليا اذا كان المؤسس خنبليا ، كما يتضح ذلك من أوقاف المدرسة الاشرفية بالنسبة للاشاعرة ، والمستنصرية بالنسبة للحنابلة وهلم جرا ، وقد لا يتعرض الواقف فى وقفه لذكر هذا النوع من الشروط او يتفاضى عن ملاحظة مثل هذه الجزئيات ، غير ان العلماء من الطائفين يحرصون كل الحرص على اشتراطه وتطبيقه .

وعلى كل حال فالشرط العلمي ، والكفاءة التدريسية اذا قويت فى الشخص ، غطت على الجوانب الخرى منه ، وحببته الى الناس ، وعلى العكس من ذلك اذا كان الشخص قليل الكفاءة وعين لمشيخة دار الحديث فان العلماء والعامة يظهرون عدم رضاهم به ، ويعلنون سخطهم فى الناس واستنكارهم لذلك فى عبارات شعبية ملحنة ومثيرة مثلما وقع لعلاء الدين مغلطاى ، حينما عين فى مشيخة دار الحديث الظاهرية ، فقابله الناس بالسخرية والاستهزاء ، قائلين ومنشدين : ويه ويه ويه ، تولى تولى درس الحديث مغلطية (14) .

ورع الاعلام من شيوخها :

ويطبع حياة الاعلام من شيوخها ورع لم يعهد له نظير الا فى رجال القرن الاول والثاني، ذلك انهم يتورعون حتى عما يحل لهم أخذه من الاجور واستعمال المواقف المباحة ، وقد ثبت عن القاسم ابي محمد بهاء الدين ابن عساكر ، وهو من شيوخ دار الحديث النورية ، انه كان لا يتناول عن مرتبة شيئا ، وانه جعله كله لمن يرد على الدارس من الطلبة والعلماء وانه فوق هذا لم يثبت له انه شرب من مائه ولا توضأ منه (15) .

---

(13) ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 5 ص : 251 .
(14) المقريزي : السلوك ج 2 ص : 375 .
(15) الدكتور أسعد أطلس : مجلة المقتطف ، عدد 104 ، سنة 1944 .

ومثله الشيخ الامام النووي رحمه الله ، فقد كان شيخ دار الحديث الاشرفية مدة طويلة ولكن ورعا منه ، لم يثبت انه استغل نفوذه الروحي فى شيء ، من متاعها ، ولا بحث عن مقابل مادي لاعماله ، بل كان يترك مرتبه يجتمع لدى الناظر ، حتى اذا تجمع منه مبلغ لا بأس به اشترى به أملاكا وكتبا واوقفها على الدار ، وكان الى جانب هذا لا يقبل من احد شيئا الا ممن ليست به علاقة اقراءا او انتفاعا ، قصد الخروج من حديث « اهداء الفوس » (16) وكان يقنع بالقليل مما يبعث به اليه والده ، ويرى نشر العلم متعينا عليه ، واخذ الاجرة عن الامور المتعينة مكروه فى نظر العلماء الورعين أمثال الامام النووي رحمه الله .

وقد تحمل هؤلاء الاعلام في سبيل العلم — الى جانب عبء الورع — عبء الانقطاع والملازمة الشديدة للدرس ، عكس ما كان عليه رجال السلف، لانهم أدركوا ان واجب نشر العلم ، اصبح متعينا عليهم بعد أن قل العلماء وقل المخلصون ، ولذلك قيل عن الحافظ ابن عساكر ، انه لزم دار الحديث النورية الى حين وفاته ، غير ملتفت الى غيرها ولا متطلع الى زخرف الدنيا ولا ناظر الى محابس دمشق ومنتزهاتها ، بل لم ينقطع عن نشر العلم ، والتعبد بأنواع العبادة من صلاة وصيام واعتكاف وصدقة ، وتشييع جنازة وصلة رحم الى ان قبضه الله (17) .

وسيرة الانقطاع للعلم ، لم تكن معروفة عند السلف الاولين ، اذا استثنينا منهم أمثال الامام مالك ، لوفرة أهله فى أزمانهم ، وتوفر اسباب التعاون على جميع اوجه الحياة العامة فيما بينهم ، وقلة التكاليف التي تسود مظاهر حياتهم ، ومن ثم نجد أحدهم يتصدى لنشر العلم الى جانب مشاغل أخرى كالتجارة والقضاء والقيادة ، كالذي كان عليه أبو حنيفة وابن المسيب ، وأبو يوسف ، واسد بن الفرات ، وغيرهم من أئمة السلف .

---

(16) وحديث « اهداء الفوس » روى عن جماعة من الصحابة ، وهو ان ابي كعب رضي الله عنه علم رجلا القرءان فاتى اليمن ، واهدى له قوسا ، فذكر ذلك للنبي (ص) فقال له : « ان اخذتها فخذ بها قوسا من النار » .

(17) ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 4 ص : 277 .

جهادهـــم خارجهـــا :

وقد يفهم من انقطاع بعض الشيوخ عن صخب الحياة العامة ، وشدة انصرافهم للتدريس انهم منعزلون بتاتا عن مصالح المسلمين ، وملازمون لحياة الرهبانية ، لا يتجاوزون بنشاطهم المساجد وقاعـــات الـــدروس ، والواقع انه ان كان بعضهم مضطرا الى نوع من العزلة فرارا بدينه ، فان بعضهم الآخر قد تجاوز نشاطه حدود المدرسة الى مجال الحياة العامة ، وساهم فى الحياة السياسية والعسكرية ، وخير مثال لهذا النشاط العام خارج المدارس ما قام به الامام النوري فى باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومواجهة الجبابر ، والمفسدين بالانكار والنص لهم بالتي هـــي أحسن (18) ، وما قام به ابن تيمية من الادوار الديبلوماسية مع التتارين والمساعي العسكرية مع الصليبيين (19) .

شهرتهم فى العالم الاسلامي :

ولم يكن انقطاع شيوخ دور الحديث للعمل العلمي الجاد ليحصـــر شهرتهم داخل نطاق خاص بل على العكس من ذلك كانت خدمتهم الصادقة للعلم درسا وتأليفا ، العامل الاساسي ، لانطلاق شهرتهم عبـــر الآفـــاق ، ولخلود آثارهم المباركة فى العالم الاسلامي الى الآن ، فقد طلب غيرهم من العلماء الشهرة بالعلم ، فاضمحلت آثارهم بعد موتهم ، أما هم فطلبوا بـــه وجه الله ، فخلد بذلك آثارهم فى العالمين الى اليوم ، فقد جاهـــدوا فى الله حق جهاده ، وحملوا راية العلم والاصلاح ، وتحملوا المشاق فى سبيل الذب عن الدين ، ألفوا الكثير من المجلدات فى مختلف العلوم ، وعبـــدوا بذلك طرق العلم والعرفان ، وسهلوا مسالك الرواية الدراية والاستفادة من علوم الاقدمين ، ومن تتبع اسماء المؤلفين فى المكتبات الاسلاميـــة وتصفح قوائمها بامعان ، يدرك ان غالب المؤلفين لمجلدتهـــا الضخـــام ، ولنفائسها الشهيرة ، ينتمون الى الاجيال التي تخرجت من دور الحديث منذ القرن السادس وما بعده ، كما يدرك ان تلك المؤلفات ، ما كان ليكتب

---

(18) **السنحاوي : ترجمة الامام النووي ، ص : 37 ـ السيوطـي : حســن المحاضــرة ج 2 ، ص : 66 .**

(19) **محمد ابو زهـــرة : حيـــاة ابن تيميـــة ص : 36 .**

لها هذا الخلود ، لولا اخلاص المؤلفين لها ، ولولا عناصر الجودة والتنوع التي توفرت عليها ، فهذه مؤلفات ابن عساكر والنووي وابن الصلاح تمهد طريق المحدثين ، وهذه مؤلفات ابن تيمية وابن القيم تستعرض جميع المباحث الاسلامية فى ترتيب وصفاية جديدة . وهذا ابن كثير يبدىء ويعيد فى ميدان التفسير بالمأثور ، وهذا ابن حجر ، والسيوطي يحددان كل ما ألف فى مداني التفسير والحديث الى غير ذلك من المميزات التي تزخر بها مؤلفات شيوخ دور الحديث المنتشرة فى انحاء المعمور .

امتيازهم بظاهرة الحفظ :

وقد انتعشت ظاهرة الحفظ من جديد ، بفضل المناهج المتبعة فى دور الحديث والاساليب التي استعملها شيوخها الابرار ، لاحياء ما عرف به الشيوخ فى القرون الثلاثة الاولى من الحفظ الغزير ، وخاصة بين الطلبة الشبان الذين اقبلوا متنافسين على استظهار الآلاف من الاحاديث بأسانيدها وعللها ، تحدوهم الرغبة فى التقرب الى الله بحفظها والعمل بها حتى برز منهم عشرات من الحفاظ أمثال المزي وابن دقيق العيد والسيوطي وابن تيمية والذهبي والعراقي وابن كثير وابن حجر وآخرين . ويؤكد هذا الامتياز باصدار من بعضهم فى حق البعض الآخر من شهادات تدل على علو كعبهم فى هذا الميدان ، فقد قال الحافظ الذهبي بنفسه : « احفظ من رايت اربعة ، ابن دقيق العيد والدمياطي ، وابن تيمية ، والمزي ، فابن دقيق العيد افقههم فى علوم الحديث ، والدمياطي اعرفهم بالانساب ، وابن تيمية أحفظهم للمتون ، والمزي أعرفهم بالرجال » (20) .

وقال تاج الدين ابن السبكي فى الذهبي شاهدا له بالحفظ والتفوق « اشتمل عصرنا على أربعة حفاظ ، المزي والبرزالي والذهبي والشيخ الوالد ، فأما أبو عبد الله ، فهو امام الوجود حفظا ، وذهب العصر معنى ولفظا ، وشيخ الجرح والتديل ، فهو الذي اخرجنا من هذه الصناعة ، وادخلنا فى عداد الجماعة ، وقال متحدثا عن والده (21 « واستحفافه لمشيخة

---

(20) ابن تيمية : العكاوي الكبرى ج 1 « ى » .

(21) ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 5 ص : 216 .

دار الحديث الاشرفية ، ومميزات بعض شيوخها الآخرين ، فالذي نراه أنه ما دخلها أعلم منه ، ولا احفظ من المــزي ، ولا مــن النــووي وابــن الصـــــلاح » (22) .

وقد قال ابن تيمية من بين هؤلاء جميعا درجة من الحفاظ والاطلاع، جعلت العلماء المعاصرين له يتفقون جميعا على التنويه بحفظه واستحضاره الغريب واطلاعه الواسع على ما هو معروف فى عصر من العلوم وفى شأن ذلك يقول الحافظ المزي : «ما رأيت مثله ، ولا أرى هو مثل نفسه» وقال الحافظ اليعمري عنه : «انه كان يستوعب السنن والاثار حفظا وقال فيه ابن الزملكاني : « كان ابن تيمية اذا سئل عن فن من الفنون ، ظن الرائــي والسامع انه لا يعرف غير ذلك الفن » وقال فيه ابن السبكي : « ابن تيمية غريب المثل فى هذا الزمان بل فى أزمان » وقال فيه الحافظ الذهبــي : « كل حديث لم يعرفه ابن تيمية فهو غير صحيح » وقال أيضا عن حفظه : لما كان ابن تيمية معتقلا بالاسكندرية ، التمس منه صاحب سبتة انيحيز لاولاده ، فكتب فى ذلك نحوا من ستمائة سطر ، منها سبعـــة أحاديــث بأسانيدها ، والكلام على صحتها ومعانيها ، وبحث وعمـــل ما اذا نظــر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث عمل ذلك كله من حفظه من غير أن يكون عنده ثبت او من يراجعه » (23) .

وهذه الشهادات فى مجموعها تدل على عدة أشياء بالنسبة للحفاظ فى عصو دور الحديث ، منها :

1) ان عدة هؤلاء الحفاظ تجاوز العشرات .

2) ان المقصود بحفظهم لا يعني حفظ المتون فقط ، بل يعنـــي استحضار كل ما يتصل بعلوم الحديث الى جانب حفظ المتون ، وهـــو المفهوم الصحيح للحافظ فى عرف المحدثين الاولين .

---

(22) ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 6 ص : 246 .

(23) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 4 ص : 288 – ابن رجب : الذيـل على الطبقات ج 2 ، ص : 347 .

3) ان هؤلاء الحفاظ وأن نالوا جميعا لقب الحافظ الا أنهم يتفاوتون فى حفظهم وفى مستوياتهم العلمية ، وفيما يميل اليه أحدهم أكثر من غيره .

4) ان حفظ هؤلاء رغم ما بينهم من التفاوت ، لا يقل عن حفظ الاوائل من المحدثين اذ كلهم حفاظ ، ولقب الحافظ لا يطلق فى عرف المحدثين الا على من استكمل شروطه .

ومما يؤسف له ان توقف الحفظ ، وختمت سلسلة الحفاظ بابن حجر ، وعجز الناس فى العصور المتأخرة عن ان تربط حفظها بعصور السلف ، كما فعل ذلك شيوخ دور الحديث ، وقد قال السنحاوي فى الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر (24) : « والله ما رأيت أحفظ من صاحب الترجمة يعني الحافظ ابن حجر ، وهو ما رأى أحفظ من شيخه ابي الفضل العلائي ، وهو ما رأى أحفظ من شيخه المزي ، وهو ما رأى أحفظ من الدمياطي ، وهو ما رأى احفظ من المنذري ، وهو ما رأى أحفظ من أبي الفضل المقدسي ، وهو ما رأى أحفظ من الحافظ عبد الغني المقدسي ، وهو ما رأى احفظ من ابي موسى المديني ، الا ان يكون ابا القاسم ابن عساكر ، لكن لم يسمع منه ، انما رآه وهما ما رأيا أحفظ من اسماعيل التميمي ، وهو ما رأى احفظ من الحميدي ، وهو ما رأى احفظ من الخطيب البغدادي ، وهو ما رأى احفظ من ابي نعيم الاصبهاني ، وهو ما رأى احفظ من ابي اسحاق ابراهيم بن حمزة ، وهو ما رأى احفظ من ابي جعفر بن يحيى بن زهير التستري ، وهو ما رأى احفظ من ابن زرعة الرازي ، وهو ما رأى احفظ من ابي بكر بن ابي شيبة ، وهو ما رأى احفظ من وكيع ، وهو ما رأى احفظ من سفيان ، وهو ما رأى احفظ من مالك ، وهو ما رأى احفظ من الزهري ، وهو ما رأى احفظ من ابن المسيب ، وهو ما رأى احفظ من ابي هريرة ، وقد أملى ابن حجر فى دور الحديث بمصر نحو ألف مجلس الى أن مات سنة 852 هـ .

وهذه السلسلة تدل على استمرار سنة الحفظ ووفرة الحفاظ وتفاوتهم فى الحفظ الى أيام ابن حجر فى أواخر عصر دور الحديث .

---

(24) ابو الاسعاد : فهرس الفهارس ج 1 ص : 238 .

وسائلهـــم فى اكتشاف الحفـــاظ :

وللتعرف على الحفاظ ، اعتاد الشيوخ المحدثون منذ القرن الثالث ان يعقدوا مجالس لاختبار أهل الحديث على ملأ من العلماء وعامة الناس ، وبواسطة هذه المجالس يكتشف مقدار حفظهم للمتون ومدى استحضارهم للاسانيد وعللها ، وأشهر من عقد له مجلس من هذا النوع الامام البخاري حين قدم على بغداد عاصمة العلم فى عصره ، ثم ابن دحية المغربـــي فى المشرق حين جمع له بنو أيوب علماء الحديث ، وقدموا له أحاديث كثيرة، حولوا متونها ، فأعاد المتون المحولة ، وعرف عن تغييرهـــا ، وذكـــر الاحاديث على ما هي عليه من متونها الاصلية (25) ثم ابن عات الذي امتحن فى بيت الطلبة بمراكش فى كتاب مسلم (26) وغيرهم من الذين برهنـــوا عن حفظهم واستحقاقهم عن جدارة لقب الحافظ .

وهذه الطريقة نفسها هي التي استخدمها الملوك المؤسسون لدور الحديث فى سبيل اكتشاف الحفاظ وقد سلكها كل من الملك الكامـــل ، والملك الاشرف مع ابن أبي الرجال اليونيني وتناظرا معه فى فنون مـــن فنون العلم ، حتى أعجب به الكامـــل ، وارادوه لمشيخـــة داره ، الا أن الاشرف تحيل على ذلك ، واستبقاه لنفسه ومنعه من الذهاب الى مصر .

والى جانب هذه المجالس التي كانت تعقد لاختبار اهل الحديـــث واكتشاف الحفاظ ، هناك مجالس أخرى مماثلة ، تعقد للمناقشة العلمية، والمناظرات حول ما يسمى بمسائل الخلاف العالي ، وهـــذا النوع مـــن المجالس ، يتداول كثيرا بين علماء المشرق ، وقد أثبت منه الامـــام ابن العربي المعافري نماذج رائعة فى كتابه أحكام القرءان ، كما حكى بالاندلس الامام ابن عبد البر فى كتابه « جامع بين العلم » .

ومن محاسن دور الحديث انها شجعت هذا النـــوع من المناقشات العلمية التي تستهدف تصحيح الافهام والبحث عن الصـــواب ، منهـــا المناقشة الواقعة بين أبي عمرو ابن الصلاح ، وبين عز الديـــن ابن عبـــد

---

(25) اليافعي المكي : مركـــة الجنـــان ج 4 ص : 155 .
(26) الذهبي : تذكرة الحفـــاظ ج 4 ، ص : 290 .
(27) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ص : 52 ـ 53 .
(28) أبـــو الاسعاد : فهرس الفهارس ج 1 ص : 398 .

السلام حول صلاة الرغائب والنصف من شعبان فقد اقرها الاول وانكرها الثاني وسبق كل واحد منهما مسبقا فى الرد على الآخر ، مما أثار تدخل الامام النووي الذي قال فى الموضوع : « قاتل الله واضعها » مع انهمـــا الى هذا الزمان يصليهما أهل اليمن ، ولعمرى انهما لو فعـــلا فى عهـــد الرسول (ص) وأصحابه ، لاستفاض ذلك ، واذا لم يرد فعل ذلك ومـــا تضمنه من الشعائر كان بدعة ينبغي فيها الانكار ، وليس لحسن الظن مدخل فى احداث شعار لم يكن فى الاسلام مؤيدا بذلك التدخل نظرية عز الدين ابن عبد السلام التي نالت استصواب المحققين (29) .

ويشبه هذه المناقشة ما وقع بين الحافظ المـــزي ، والحافـــظ الذهبي فى بعض المباحث النظرية والقواعد الكلامية التي يعضـــد بهـــا الذهبي ما يقرره ويسلكه من الطريقة السلفية فى الفقه الاسلامي (30)

تحريهـــم فى الاسمـــاع :

ويفضل التحري الذي اعتاده شيوخ دور الحديث فى الاخذ والتلقين، حفظ العلم ، وبقى السند فى هذه الملة صحيحا سليما ، وكانت ظاهرتـــه معروفة عند المحدثين منذ عصر الصحابة وكان أحدهم لا ينـــال درجـــة الامام الا اذا كان معروفا به فى السماع والاسماع كالامام مالك ، بل ما علم الليث الا بسبب عدم التحري فى الاسماع ، وما بقي علم مالك الا بفضـــل التحري المعتاد عنده فى الاسماع .

وللتحري فى الاسماع صور متعددة فى عرف المحدثيـــن ، منهـــا المحاضر التي يستعملها الشيوخ المحدثون ويسجلون فيها كل الذيـــن حضروا مجلس املائهم وسماعهم المملي ، وتاريخ سماعهم ومكانه ضبطـــا للرواية ، ويؤكد هذا ما عثر عليه فى خزانة الاوقاف ببغداد من مخطوطة من كتاب الشفاء للقاضي عياض تشتمل على المجلد الاول فى نسخة عتيقـــة مذيلة بالنص الاصلي لسماع جماعة بأسمائهم لسائر الكتاب على ابن جبير، وهو يذيل السماع والاجازة بتوقيعه بالخط الاندلسي (31) .

---

(29) اليافعـي المكـي : مرآة الجنان ج 4 ص : 155 .
(30) الذهبـــي : تذكرة الحفاظ ج 4 ص 290 .
(31) الكشاف عن مخطوطات خزائن الاوقاف ص : 52 ــ 53 .

ومن صور هذه المحاضر ما ذكر من ترجمة الشيخ مرتضي الزبيدي الذي يعتبر خاتمة الحفاظ بالديار المصرية ، من انه كان يملي على كل من قدم عليه حديث الاولية برواية ومخرجيه ، ويكتب له سندا بذلك واجازة وسماع الحاضرين ، وكان اذا دعاه أحد الاعيان من المصريين الى بيوتهم يذهب مع خواص الطلبة والمرئين والمستملئين وكتاب الاسماء ، فيقرأ لهم شيئا من الاجزاء الحديثية او بعض المسلسلات بحضور الجماعة وصاحب المنزل واصحابه واحبابه واولاده وبناته ونسائه من خلف الستائر ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى النساء والصبيان والبنات واليوم والتاريخ ، ويكتب الشيخ تحت ذلك « صحيح » (32) .

ومنها ما ذكر في الفهارس والمشيخات من ان يحيى بن يحيى الليثي كان يروي الموطأ عن مالك ، عدا ما فاته سماعه من مالك ، وهو مقدار يسير يرويه عن زياد بن شبطون عن مالك لا عن مالك ، وما ذكر في فهرست مسند المغرب ابي زيد عبد الرحمن سقين ، من ان مرجع سنده في صحيح مسلم ابن عبد الدائم ، يرويه عن ابي صدقة الحرائي قال : سماعا خلا من قوله : ثلاث من كن فيه : وجد حلاوة الايمان ، وكتاب الصوم بكماله ، فاجازة ، قال : كان ابن عبد الدائم يحلف انه أعيد له يعني الفوت المذكور ، على شيخه المذكور (33) .

ومما يتصل بالتحري في الاسماع ايضا ، اختبار مواهب من طلب الحديث ، والتحقق من مدى استعداده للرواية ، وقد ظل المحدثون يحرصون على هذا النوع من الاختبارات طيلة عهود دور الحديث ، ومن ذلك ما ذكره تاج الدين السبكي من ان ابن دقيق العيد من الحفاظ الذين يتحرون في الاسماع وانه ما أسمع الامام الذهبي الا بعد ان اختبر ذكاءه وتعرف على استعداده ، اذ قال له بعد ما دخل عليه : من اين جئت ؟ فقال مجيبا : من الشام ، ثم قال له : بم تعرف ؟ فقال له : بالذهبي ، ثم قال له : من أبو طاهر الذهبي ؟ فقال له : المخلص ، فقال أحسنت ، ثم قال له : من أبو محمد الهلال ؟ فقال : سفيان بن عينية ، قال : اقرأ ومكنه من القراءة عليه بعد ما رآه بالاسماع (34) .

---

(32) ابـو الاسعاد : فهرس الفهارس ج 1 ص : 398 .
(33) ابو الاسعاد : فهرس الفهارس ج 1 ص : 369 .
(34) ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 5 ص : 216 .

ويعتبر هذا بالنسبة لدور الحديث بمثابة الاختبارات التجريبية التي تجري اليوم فى المعاهد والجامعات لتوجيه ذوي المواهب من الطلبة الى الشعب التي تأهلوا بها .

وظائفهم ومهامهم :

ولا يقتصر غالب شيوخ دور الحديث على مهمة واحدة ، وفى مؤسسة واحدة ، بل كانوا يعملون فى عدة مدارس ، ويقومون بمهام اضافية أخرى، وربما ينتقلون من مدينة الى أخرى ، ومن قطر الى آخر ، كما يفعل اساتذة الجامعات فى العصر الحاضر ، فشهاب الدين ابن تيمية رحمه الله تولى وظيفة المدرس والواعظ بجامع دمشق الاعظم الى جانب مشيخة دار الحديث السكرية (35) كما ان الحافظ الذهبي تولى مشيخة الظاهرية والنفيسية والتنكيزية والفاضلية والسكرية والصالحية الى جانب خطابة كفر بطنا ، بحيث لم يتنازل هذا الاخير الا حينما تولى مشيخة دار الحديث الظاهرية ، وكان لغزارة علمه وكفاءته فى الحديث ، يخلف الشيوخ فى مهماتهم الاشراقية على دور الحديث ، فقد خلف الامام ابن تيمية فى مشيخة دار الحديث السكريمة بعد موته عام 728 هـ ، وخلف ابن جهبل فى مشيخة دار الحديث للظاهرية عام 729 هـ كما خلف رفيقه البرزالي فى مشيختة النفيسية وامامتها عام 739 هـ (36) .

طلبتها :

ينقسم الطلبة بدور الحديث الى طبقات ثلاث :

1) طبقة المبتدئين .

2) طبقة المتوسطين .

3) طبقة عليا .

---

(35) مجلة كلية الامام الاعظم ـ العراق ـ العدد : الاول ص : 316 .

(36) كرد علي : كنوز الاجواد ص : 374 .

فطبقة المبتدئين : تضم الطلاب الذين هم حديثوا عهد بالعلم ، والمتوسط فوق السابقة ، والعليا تشمل طلاب المرحلة النهائية من الدراسة ، ويدل على هذا التقسيم ما ذكره تاج الدين السبكي فى طبقاته الكبرى خلال حديثه عن شيخه « المزى » بدار الحديث الاشرفية بدمشق اذ قال : « ولما بلغ المزى ذلك ، أمرهم ان يكتبوا اسمي فى الطبقة العليا، فبلغ ذلك الوالد ، فانزعج وقال : خرجنا من الجد الى اللعب لا والله ، عبد الوهاب شاب ، ولا يستحق الآن هذه الطبقة ، اكتبوا اسمه مع المبتدئين ، فقال شيخنا الذهبي ، والله هو فوق هذه الدرجة ، وهو محدث جيد ، هذه عبارة الذهبي ، فضحك الوالد وقال : يكون مع المتوسطين » (37) .

وقد تخرج من هذه الدور عدد كبير من الطلبة المحدثين ، ومنهم من تولى المشيخة بها مثل الحافظ ابن دقيق العيد والامام ابن تيمية وتقي الدين ابن الصلاح ، والحافظ العراقي ، والسبكي وأولاده ، وأحفاد ابن عساكر ، وابن حجر ، والسخاوي وغيرهم ، ومنهم من ارتوى من علمها وعمل فى المجالات العلمية الاخرى مثل عز الدين ابن عبد السلام وابن القيم واضرابهما من المحدثين والعلماء الذين ملأوا الخزانات العلمية بانتاجهم القيم ، ومؤلفاتهم الطافحة بالعلم والحكمة ورفعوا راية العلم شامخة فى أقطار العالم الاسلامي الشرقية منها والغربية .

ورغم ان المراجع التي تصفحتها لا تعين طلبة كل دار على حدة الا نادرا ، فقد استطعت أن أسجل بعض الاسماء اللامعة التي تخرجت من بعضها مثل سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام الذي أخذ عن فخر الدين ابن عساكر بدار الحديث النورية (38) وتاج الدين ابن السبكي والرافعي والفربي وتاج الدين المراكشي وغيرهم ، الساكنين بدار الحديث الاشرفية ايام مشيخة تقي الدين السبكي بها والذين تحدث عنهم ولده تاج الدين ، اذ قال : « انهم كانوا يطالعون فى غالب الليل بها فيخرج والده ويجلس معهم فيسمع قراءة ولده تارة ، وقراءة المزي تارة أخرى (39) .

---

(37) ابن السبكي : الطبقات الكبرى ج 6 ص : 253 .

(38) ابن السبكي : الطبقات الكبرى ج 6 ص : 146 .

(39) ابن السبكي : الطبقات الكبرى ج 6 ص : 143 .

ومن طلبة الحديث المستنصرية جمال الدين ابن الشريش الاندلسي الذي قرأ على شيخها أبي الحسن القطيعي ، وقطب الدين سنجر الرومي الذي اشتراه بدر الدين اياز وغيرهما (40) .

ومن طلبة دار الحديث البهائية بحلب ابن خلكان الذي ذكر انه كان من جملة من سكنوا فيها بقصد الدراسة على شيخها ومؤسسها القاضي بهاء الدين ابن شداد ، وممن يترددون عليه فى داره ايام ضعفه ، ليسمعوا عليه الحديث (41) .

ومن طلبة دار الحديث الكاملية الدمياطي وابن دقيق العيد وغيرهما من الذين يدرسون بها لدى الحافظ عبد العظيم المنذري الذي تولى مشيختها مدة عشرين سنة (42) .

ومن طلبة دار الحديث الاشرفية ايضا عبد الرحيم بن ابراهيم بن كاميار (43) ومحمد بن ابراهيم بن يوسف ابن حامد الشيخ تاج الدين المراكشي الموصوف بالانقطاع بها لطلب العلم الى ان لقي ربه (44) .

ولا ابالغ اذا قلت : ان غالب الذين تمشيخوا فيها من طلبتها النبفاء والمتضلعين فى الحديث وعلومه ، ويظهر هذا جيدا للقارىء الكريم ، حينما يعلم مثلا ان ابن دقيق العيد الذي كانبها طالبا لدى الحافظ المنذري ، تولى مشيختها بدوره وتتلمذ عليه عبد الكافي بن علي السبكي (45) ، ومحمد بن سيد الناس الذي يستملىء بها تصانيفه ويفيد طلبته (46) .

والطلبة فى دور الحديث سواسية ، لا فرق بين عجمي وعربي ، وحر ومولى ، وذكر وانثى ، والكل يعمل فى دائرته ، ويلقى الاهتمام الاسلامي فى اطاره ، وخاصة المراة المسلمة التي لعبت دورا كبيرا فى

---

(40) حسين امين : المدرسة المستنصرية ص : 18 .
(41) محمد راغب : اعلام النبلاء ج 6 ص : 419 .
(42) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 4 ص : 228 .
(43) ابن حجر : الدرر الكامنة ج 2 ص : 461 .
(44) ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 5 ص : 233 .
(45) ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 6 ص : 127 .
(46) ابن حجر : الدرر الكامنة ج 4 ص : 210 .

نقل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ونشرها بين المسلمين ، من لدن عصر الصحابة رضوان الله عليهم الى ان قل الاهتمام بهذا الفن الاصيل ، واذا لم تظهر فى حلقات دور الحديث علانية فذلك راجع الى ان الاسلام يمقت الاختلاط والاختلاء بالاجنبية ، متعلمة أو معلمة ، والا فابن عساكر ، وهو أول شيخ لاول دار الحديث ، قد عد من شيوخه احدى وثمانين امراة ، وهذا كاف فى الدلالة على المشاركة الفير المباشرة التي كانت للمراة المسلمة فى النهوض بدور الحديث (47) بحيث استطاعت أن تواكب الحفاظ الكبار ، وتكون المثل الرائع فى الامانة والعدالة ، وتحرز على بعض أصحاب الحديث ونقادهم مثل الحافظ الذهبي الذي قال فى كتابه : « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » متحدثا عن أمانة المراة المسلمة وعدالتها قولته المشهورة : « وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها » (48) .

ودور المراة المسلمة فى نشر الحديث وعلومه مشهور ومعروف قبل دور الحديث وبعدها ، ومساهمتها فى ميدان التدريس ، لا يحتاج الى دليل ، فقد أخذ الامام الشافعي رضي الله عنه عن السيدة نفيسة بنت أبي محمد حسن لما دخل مصر (49) ، وأخذ ابن خلكان عن أم المؤيد زينب بنت الشعري ، كما أخذ العالم المصلح المشهور ابن تيمية الحراني عن فخر النساء شهدة بنت ابى نصر البغدادية التي لها السماع العالي فى الحديث (50) .

على ان المراة المسلمة وان لم يكن لها هذا الدور الواضح الذي نبحث عنه فى دور الحديث فقد ساهمت مساهمة فعالة فى انشاء هذه الدور ، وحركت بدورها عاطفة نور الدين الشهيد الذي ربط اسمه بهذا النوع وغيره من المؤسسات التعليمية فى الاسلام ، فقد كان رحمه الله معاصر للمحدثة الفقهية فى حلب : فاطمة بنت علاء الدين السمرقندي ، وكان يستشيرها فى أموره الداخلية ، وياخذ عنها المسائل الفقهية (51) ،

---

(47) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية .
(48) الذهبي : ميزان الاعتدال ج 3 ص 395 .
(49) ابن خلكان : ج 2 ص : 224 .
(50) ابن خلكان : ج 1 ص : 657 .
(51) غنيمة : الجامعات الاسلامية ص : 307 .

الشيء الذي يجعلها تكون من الذين حببوا الى نور الدين الاقبال على نشر الحديث وعلومه بين الناس .

اقبالهـــم على الحفـــظ :

وقد كان لطلبتها أسوة بشيوخهم المشهورين بالعلم الغزير والحفظ الكثير ، فسادت روح المنافسة بينهم ، وأقبلوا بكليتهم على حفظ المتون وكتب الصحاح ، وبذلوا جهودهم فى اتباع طريقة فى البحث عن الاسانيد العالية ، والاساليب التي تمكنهم من التفوق على غيرهم فى ميدان الرواية والدراية ، حتى انهم فى بعض الاحيان يقدمون على الاخطار ، ويستعملون بعض الادوية التي تعتقد فيها انها تشحذ الاذهان ، وتقــوي الحافظـــة ، وتمنع النسيان ، ومن ذلك ما رواه أحد شيوخ دار الحديث البهائية مـــن انه شاهد وهو طالب بالمدرسة النظامية ، أربعة من طلبتها اتفقـــوا على استعمال حب البلاذر (52) ، ليعينهم على الحفظ والفهـــم ، فاستشاروا بعض الاطباء الجاهلين ، وشجعهم على استعمال قدر كبير منـــه ، فلمـــا شربوه جنوا وتفرقوا ، ولم يعلم أحد ما وقع لهم ، الا أن واحدا منهـــم دخل على الفقهاء فى المدرسة وهو عريان ، فسأله أحدهم عن حاله وقال : « كنا قد اجتمعنا وشربنا حب البلاذر ، فأما أصحابي فانهم جنوا ، ومـــا سلم منهم الا أنا وحدي ، مظهر العقل والسلامة مما أصاب اخوانه » (53).

هذا ومن الشروط التي تشترط فى الطلبة بدور الحديث ، التفرغ لعلوم السنة والانتصار لمذهب أهلها ، والتحلي بالآداب النبوية ، والعمل على رد الاعتبار الذي كان للنص التشريعي على تحكيم العل فى أيام السلف الصالح ، الى جانب شروط اجتماعية أخـــرى مثـــل المحافظـــة على اللحـــــى (54) .

---

(52) البلاذر : حبوب سامة ، تورث الخبال ، ومن ضحاياها البلاذري ، صاحب كتاب فتوح البلدان ، ويعتقد انها مفيدة للحفظ ، انظر معجم الاداب ج 5 ص : 92 .

(53) مجلة المجتمع العلمي العراقي سنة 1954 .

(54) محمد راغب : اعلام النبلاء ج 3 ص : 222 .

مكتبـــاتهـــــا :

أما مكتباتها فهي عديدة وعظيمة ، وحافلة بالكتب العلمية فى مختلف الفنون ، وتعتبر العنصر الاساسي للانشطة الثقافية والانظمة التعليميـــة بدور الحديث ، وتزود بالكتب من طرف المؤسسين والمحسنيـــن مـــن الملوك والامراء والاغنياء ، ومن بعض شيوخها ممن وقفوا كتبهـــم لهـــا ، وتنازلوا عن مرتباتهم لصالح مكتباتها ، مثل ما فعل الامام النـــووي (55) وابو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن محمد الهندي (56) وابو العبـــاس أحمد بن شمس الدين ابي بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن طلحـة الحلبي (57) ، وغيرهم من الشيوخ الكرام الذين وقفوا كتبهـــم على دور الحديـــــث .

وللأسف الشديد نهبت تلك المكتبات كلها ، كما نهبت الدور نفسها فى المصائب العظمى التي عانت منها الشيء الكثير ، وقد أحرق جلهـــا ، وشتت الباقي فى خضم الاحداث القاسية ، والفتن الحالكة التي عرفهـــا تاريخ هذه المؤسسات العلمية المليء بالمآسي والفواجع، بحيث لم يبق من آثارها اليوم الا ما تجلى فى الظاهرية بدمشق ، والمستنصرية ببغداد (58)

وقد تحدث السيد محمد كرد علي عن فتنة تيمورلنك الواقعة سنة 803 هـ فقال : « ان النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها فى الفتنة التيمورية ثلاث أيام (59) مما أدى الى احراق العدد الكثير من كتب دور الحديث والمدارس المختلفة » .

منـــاهجهـــــا :

يستفاد من اسم دور الحديث ، ومن الشروط التـــي يشترطهـــا المحبسون عليها ان نوع التعليم بها عال وتخصصي فى آن واحد ، فكونه

---

(55) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 4 ص : 259 .
(56) النعيمي : الدارس من المدارس ج 1 ص : 130 .
(57) النعيمي : الدارس من المدارس ج 2 ص : 141 .
(58) حسين أمين : المدرسة المستنصرية ص : 122 .
(59) محمد كـرد علـي : خطط الشام ج 6 ص : 178 .

عاليا يقتضى ان لا يقبل بدار الحديث الا من سبق له التعليم فى مؤسسات اخرى ، وتزود من العلوم بقدر ما يؤهله للتخصص في علوم الكتاب والسنة وكونه تخصيصا يقتضي ان لا يدرس فيه من المواد الا ما له صلة وثيقـــة بالحديث وعلومه أو علوم التفسير أو الآلة ، أما فنون الآداب او الفـــروع الفقهية والمنطق فأهميتها ثانوية فى منهاج هذه الدور ان لم تكن ممنوعة ومحرمة كما هو شأن بعض شيوخها بالنسبة للفلسفة والمنطق ، ذلك ان المنطق وان كان فى أصله انسانيا ، الا انه فى شكله يوناني فهو صصنعة عقلية، ذات صلة متينة بالفلسفة ، والفلسفة بطبيعتها تختلف مع مبادىء الدين ، لكونها تعتمد على العقل اعتمادا كليا ، بينما الدين يقيد العقل ويجعله تابعا لا متبوعـــــــا .

وقد تأثر الملمون بسلطان الفلسفة والمنطق منـــذ القرن الثانـــي ، لدرجة ان اعتبره الغزالي بعد ذلك ــ وهو من أساطين العلم فى الاسلام ــ معيارا لكل العلوم ، وقال فى شأنه : « من لا معرفة له بالمنطق لا فائـــدة بعلمه » هكذا سيطر المنطق على عقلية بعض علماء الاسلام ، أمثال الغزالي والآمدي والباقلاني والجويني ، وكل الذين لهم صلة بالتيار الاشعري فى بعض جوانبه بروأسب المعتزلة ، لان أبا الحسن كان معتزليا فى أول أمره، وماهرا بافنين كلامهم فى الجدل وان خالفهم فيما بعد فى الآراء (60) .

واذا كان الفرض من انشاء دور الحديث هو انعاش الحديث ، علمنا من ذلك ان اهل الحديث من أيام أحمد بن حنبل كانوا يمثلون نزعة مضادة لكل الفرق الكلامية التي تتخذ من المنطق السلم الاول فى الدفـــاع عـــن آرائها ، ولاجل هذه النوعية نرى كثيرا من رجال السلف المتأثرين بتيار المحدثين يكرهون المنطق ، ويمنعون من الاغترار بمقدماته وأشكاله كابن حزم وابن أبي زيد القيرواني وابن الصلاح والنووي ، وقد تجدد الخلاف حول المنطق فى أيام هذين الاخيرين وقررا رأيهما فيه بالتحريم ، وحكما بضرر المنطق بالعقائد الدينية ، لكنها ، لم يثبتا عقمه وضرره بالبرهان ، ولم يحاولا تقويضه من أساسه ، حتى جاء ابن تيمية فالف كتابا خاصـــا سماه المنطق ، فكان بذلك آخر من ناصر الاتجاه الحنبلي ضد المنطق ، واول من اكتشف عقمه عقليا قبل ان يكتشفه (ديكارت) بما يزيـــد على اربعـــة قـــرون .

---

(60) الغزالـــي : المستصفـــى ج 1 ص : 10 .

على ان الشعور بعقمه كان قديما فى رجال السلف الاولين ، واحسن ما يصور لنا ذلك ، المناظرة التي وقعت بين (متى) الفيلسوف النصراني، وابن سعيد السرافي في مجلس الوزير ابن الفرات ، والمناظرة بتمامها فى كتاب (الامتاع والمؤانسة) لابي حيان (61) .

وعليه فالمنهج الدراسي فى دور الحديث ، يخالف المناهج المعهودة فى المدارس الكبرى القديمة وان كانت هي التي ترعى الثقافة الاسلامية بصفة عامة ، ولهذه المخالفة مظاهر مختلفة منها :

1) التقليل من المنطق الصوري دون التنكر للعقل وادلته .

2) الترفع عن الابحاث الفرعية فى القضية ، ومحاولة استنباط لاحكام من النصوص الشرعية راسا .

3) الاعتماد الكلي على استقراء النصوص المقابلة بينها ، وقد كان لهذا الاتجاه الجديد فى البحث مزايا كثيرة ، تتجلى فى الفكر الذي تتسم به احاديث المحدثين بصفة عامة ، وابحاث ابن تيمية وابن القيم بصفة خاصة.

4) الاعتداد الشديد بنقد الحديث سندا ومتنا ، وتقديم ما يستفاد منه من الفقه على المذاهب القائمة (62) .

ومن اجل تركيز المنهاج السلفي فى البحث ، كان لا يسمح بدراسة المواد والكتب التي تتفق وغايتها الخاصة فى الفقه الصحيح فى الكتاب والسنة ، وانما يسمح بدراسة المستوى وكتب أصول الفقه ، وكتب التراجم وكتب أصول الدين « الكلام » وكتب اللغة والصرف ، وما اشبه ذلك مما لا بد منه فى فهم القرءان والحديث .

واشهر الكتب المتداولة فى دور الحديث يومئذ ، كتاب الموطأ والصحيحان ، وجامع الترمذي ، مسند الشافعي ، ومسند الامام أحمد ؛ ومسند ابن داود وابن ماجة والدارمي، وعلوم الحديث للحاكم النيسابوري، القرءان لابي عبيد ، والجامع بين الصحيحين ، وجامع المسانيد لابن

---

(61) ابو زهرة : حياة ابن تيمية ص : 245 .
(62) ابن تيمية : القبـاوي ج 2 ص : 201 .

وابن الصلاح ، ومعجم الطبراني ، ومغازي موسى بن عقبة ، وفضائل الجبوزي ، والحلية والاجزاء بمعرفة الاطراف ، ومعجم البرزالي الذي انشأ فيه الذهبي البيتين المشهورين :

يا طالبا بغية الشيوخ وما رأوا ورووا على التفصيل والاجمال ،
دار الحديث انزل تجد ما نبتغي لك بارزا من معجم البرزالي (63)

ويضاف الى هذه المراجع الكتب الاخرى ، التي يؤلفها شيوخ دور الحديث الكبار مثل الحافظ العراقي والحافظ المنذري ، والنووي وابن الصلاح وابن تيمية ، وابن سيد الناس وابن حجر وغير هؤلاء الشيوخ الذين يجمعون املاءاتهم ومحاضراتهم العلمية التي يلقونها على طلبتهم بدور الحديث كما يفعل أساتذة الجامعات العصرية اليوم فى مختلف الاقطار .

ويزيد على هذه المواد ايضاحا ، ما ذكره النووي عن نفسه من انه حدث بالصحيحين وسنن ابن داود والدارقطني وشرح السنة للبغوي والرسالة القشيرية وصفوة التصوف والحجة على تارك المحجة وشرح معاني الآثار للطحاوي كلها سماعا وبحثا بدار الحديث الاشرفية (64) .
وما نقل عنه الشيخ أبو الحسن العطار من أنه قال : انه كان يقرأ كل يوم اثنى عشر درسا ، درسا فى الجمع بين الصحيحين ، ودرسا فى مسلم ، ودرسا فى اللمع لابن جنى ، ودرسا فى اصلاح المنطق ، ودرسا فى التصريف ، ودرسا فى أصول الفقه ، ودرسا فى أسماء الرجال ، ودرسا فى أصول الدين ، ثم خطر لي ان اشتغل فى الطب واشتغلت فى كتاب القانون ، واظلم قلبي ، فبعت القانون فنار قلبي (65) .

مجالس التحديث بها :

ومنذ العصور الاولى للتحديث والمحدثون يحرصون على تمييز مجالس التحديث عن غيرها من مجالس المذاكرة العلمية العامة ، ومعنى ذلك ان مجالس التحديث تمتاز عن غيرها بالمزيد من الضبط والامانة والاتقان والمهابة والاحترام ، لانها مجالس الرواية والتبليغ عن رسول الله

(63) ابو الاسعاد : فهرس الفهارس ج 1 ص : 156 .
(64) السخاوي : ترجمة الامام النووي ص : 19 .
(65) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 4 ص : 259 .

صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم كانت لا تعقد الا بين اناس أهلتهم مواهبهم العقلية والنفسية لرواية الحديث .

وقد درج عرف المحدث بتمييز مجالس الحديث باستعمال هيئات خاصة ، والفاظ محدودة ، والتزام كيفيات محدودة ، اما فيما يخص هيئات الشيوخ أثناء التحديث ، فقد اعتادوا التطيب وللباس الحسن والوقار الصادق والتخشع البالغ ، لما يغمر تلك المجالس من الفاظ نبوية كريمة ، واكثر المجالس اقبالا وفائدة ، تلك التي تكون خشوعا وتوقيرا كمجلس الامام مالك الذي وصفه بعض الشعراء بقوله :

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة والسائلون نواكس الاذقان
ادب الوقار وعز السلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان (66)

وأما الالفاظ ، فقد كان المحدثون يحرصون كل الحرص على الاداء الدقيق بواسطة الفاظ اصطلحوا على دلالة كل واحد منها على حدة ، فلفظ حدثنا مثلا ، ومثله أخبرنا وأنبأنا وسمعت يدل على السماع المباشر من الشيخ ، ولفظ بلغني ورويت وعن وأن تحتمل السماع الغير المباشر مرة ، والمباشر مرة أخرى بقرائن يعلمها اهل تلك الصناعة .

وأما الكيفيات الخاصة ، فنحو الاستفتاح بآيات من الذكر الحكيم ، ثم البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم التزام التصلية عليه كلما ذكر ، والترضية على اصحابه كلما ذكر أحدهم وغير ذلك .

وقد تحدث الامام النووي عن النظام المتبع في دور الحديث فقال : اذا كان الدرس درس حديث أو علم من علومه ، فان الطريقة المتفقة عليها والمعتادة بين المحدثين ، هي ان يبدأ الدرس بتلاوة آيات من الذكر الحكيم ، ثم على الشيخ ما عنده ، ويساعده مهل يردد ما يمليه الشيخ حتى يبلغ السامعين خاليا من شوائب الخطأ واغلاط التصحيف ، كما أشار فيما يخص المدرسة الاشرفية الى الطريقة المستحسن اتباعها فقال :

« يستحب للمحدث العارف عقد مجلس لاملاء الحديث ، فانه أعلى الرواية ، ويتخذ مستمليا محصلا متيقظا يبلغ عنه اذا اكثر الجمع على

(66) السيوطي : تنوير الحوالك ج 1 ص 4 .

عادة الحفاظ ، ويستملي مرتفعا والا قائما ، وعليه تبليغ لفظه على وجهه ، وفائدة المستملي تفهيم السامع على بعد ، وأما من لا يسمع الا المبلغ ، فلا تجوز له رواية عن المملي الا ان يبين الحال ويستنصب المستملي الناس بعد قراءة قارىء حسن الصوت شيئا من القرءان ، ثم يبسمل ويحمد الله تعالى ، ويصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتحرى الابلغ فيه ، ثم يقول للمحدث : من أو ما ذكرت رحمك الله ، أو رضى عنك وما أشبه، وكلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الخطيب – ويرفع به صوته – صلى الله عليه وسلم ، واذا ذكر صحابيا قال : رضي الله عنه ، واذا ذكر ابن صحابي قال رضي الله عنهما . ويحسن بالمحدث الثناء على شيخه حال الرواية بما هو أهله كما فعله جماعات من السلف ، والاعتناء بالدعاء ، فهو أهم ، ولا بأس بدكر من يروي عنه بلقب او وصف او حرفة او أم عرف بها ، ويستحب ان يجمع فى امكانه جماعة من شيوخه مقدما أرجحهم ، ويروي عن كل شيخ حديثا أو يختار ما علا سنده وقصر متنه والمستفاد منه ، وينبه على صحته وما فيه من علو وفائدة وضبط مشكل ، وليتجنب ما لا تحتمله عقولهم وما لا يفهمونه ، ويختم الاملاء بحكايات ونوادر وانشادات بأسانيدها ، وأولاها فى الزهد والآداب ومكارم الاخلاق ، واذا قصر المحدث أو اشتغل عن التخريج بالاملاء ، استعان ببعض الحفاظ ، واذا فرغ من الاملاء قابله وأتقنه ، والله أعلم (67) على هذه الهيئات ليست مما يلزم شرعا ، وانما وقعت من بعض السلف من غير قصد تركا واستحسانا ، ووقعت من الخلف عرفا واعتيادا مقصودا ، فهي ليست من صلب التعليم الشرعي ، وانما هي من ملح للطعام كما ذهب الى ذلك أبو اسحاق الشاطبي رحمه الله ، ويستفاد من هذا النص أشياء كثيرة بالمجالس التي تعقد خصيصا لاملاء الحديث بدور الحديث ، منها :

1) ان الاحتفاظ بهذه المجالس امتداد لما يقتضيه السند من تلقي الحديث بأمانة ، ونشره بين الناس سليما خاليا من الاغلاط .

2) ان الخلف كانوا يومئذ يستبرئون لدينهم فى الرواية ، ويجتهدون لتبليغ امانة العلم .

---

(67) النووي : التقريب ص : 29 .

3) هذه المجالس يغمرها جو من العصبية والتعظيم تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه التابعين وكل الشيوخ الذين نقلوا الحديث جيـــلا بعـــد جيـــل .

4) ان الرواية عن الشيوخ لا تجوز الا لمن يسمـــع الالفـــاظ من افواههم بكيفة واضحة .

5) ان مجالس الاملاء ، كانت تمتاز عن غيرها من مجالس العلم فى عرفهم بما يتخذ لها من اعداد خاص .

6) الحرص على تعدد طرف الرواية ، وتأكيد بعضها ببعض ، مع ذكر ما تمتاز به كل طريقة من المحاسن والمطاعن ، وفاء بما يفرضه النقد العلمي النزيه .

7) مراعاة مستوى السامعين فيما يشرح لهم من قواعد التحديث وتحقيق مفاهيمه ، وتنشيط تقوسهم بأنواع من الاحماض بذكر النكـــت العلمية وحكايات فى الزهد ومكارم الاخلاق . ومجموع ما أستفيد من هذا النص يدل على ان مجالس الاملاء فى دور الحديث يومئـــذ تتوفـــر على مستوى رفيع من التحري والدقة فى التلقين العليين ، وتتمتع بجو مرموق من الآداب التربوية والقواعد الاخلاقية التي تقصر البيداغوجية الحديثـــة عـــن بلوغـــه (68) .

شهاداتهـــــــا :

لم تعرف الشهادات الدراسية فى العهد الاول للاسلام ، ومع ذلـــك فان مجالس التعليم كانت مرهوبة ، لا يقدم عليها الا من استطاع ان يثبت امام مناقشة الطلبة ، ويروى ان أبا حنيفة كان يلتحق حمـــاد بن ابـــي سليمان ، ثم احسن ان فى مقدوره ان يستقل عنه ، ويكون لنفسه حلقـــة يعلم فيها ففعل ، لكن طالبا سأله سؤالا لم يستطيع ان يجيب عنه ، ففض حلقته وعاد الى حلقة أستاذه (69) .

---

(68) ابن حجر : الامالي المصرية ص : 139 (مخطوط) رقم 114 بالخزانة العامة .
(69) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص : 250 .

هكذا كان الشأن بالنسبة للدروس العلمية ، وأما الحديث وروايته فلم يكتف بما اكتفى به مع سواه من العلوم ، ولم يكن المدرس يجرؤ على روايته جراته على تدريس أية مادة أخرى ، ومن أجل الدقة التي يتطلبها الحديث ، وكان المحدثون منذ عهد مبكر ، يعطون طلابهم الذين ياخذون عنهم شهادة بما رووا لهم من احاديث ، ويجيزون لهم روايتها عنهم ، والاجازة تدل على المستوى العلمي لمن منحت له ، اذا الشيوخ ما كانوا يمنحون الاجازة الا لمن كان ذا معرفة تهيئه ان يروي الاحاديث المأذون له فى روايتها ، ويشترط لصحة الاجازة ان يكون المجيز عالما بما يجيز به، ثقة فى دينه وروايته ، معروفا بالعلم ، وأن يكون المستجيز من اهل العلم ، متسما بسمته ، حتى لا يوضع العلم عند غير اهله (70) .

وللاجازات نفس القيمة التي للشهادات اليوم ، فبها تعرف قيمة الطالب وشيوخه الذين أخذ عنهم ، وبها يستطيع ان يثبت لغيره انه فى مستوى علمي من شأنه ان يؤهله للعمل على الاقل فى بعض المجالات العلمية المرموقة ان لم تكن لديه القدرة الكافية على انارة الانتباه اليه عن طريق املاءاته ومحاضراته ومؤلفاته .

أيام الدراسة والعطل بدور الحديث :

ولم نعثر على من حدد أيام الدراسة بدور الحديث اللهم الا ما كان من دار الحديث المستنصرية التي حددت فيها بثلاثة أيام من كل أسبوع، والمدرسة العثمانية بحلب التي حددت فيها بيومين فى الاسبوع ، كما ان اوقات الدراسة بها غير محددة ايضا ، بل ترك أمر ذلك للشيوخ الذين لهم الحق فى تقدير الوقت الكافي للمواضيع التي يدرسونها ، فالبعض منهم تكفيه ساعة أو ساعتان ، والبعض الآخر يستفرق اكثر من ذلك مثل أبي الفرج كمال الدين عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن وريدة الذي يطيل الجلوس فى دروسه مع طلبته دون ان يلحقه ملل أو ضجر ، ومع هذا فقد رتبت الاوقاف الدراسية بها ترتيبا تربويا مفيدا بحيث يكون للطلبة والشيوخ بها على حد سواء أوقات أخرى للمطالعة والتحضير ، ولا تتعطل الدراسة الا فى العطلة الاسبوعية الاسلامية وأيام الاعياد الدينية (71) .

---

(70) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص : 250 .

(71) حسين أمين : المدرسة المستنصرية ص : 81 .

أثر دور الحديث فى توحيد الاساليب التربوية :

ولدور الحديث أثر كبير فى توحيد الاساليب التعليمية والانظمة التربوية فى مآثر أقطار العالم الاسلامي ، وتسهيل الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب الاسلاميين ، وذلك بفضل ما خرجته من العلماء والمحدثين المنتسبين لمختلف الاقطار ، والذين نقلوا أساليبها وطرقها الى بلدانهم ، ونشروها فى أوطانهم .

ولها دور كبير أيضا فى التشجيع على البحث العلمي وتحريك همم العلماء وإثارتها نحو الانتاج والتأليف فى مختلف البلدان الاسلامية ، وفى مختلف فروع المعرفة ، بفضل ما نشره شيوخها وطلبتها من علوم ، وما ألفوه من مجلدات ضخام ما زالت لحد الآن المراجع الاساسية للدارسين والباحثين فى مختلف الفنون .

وبفضلها أصبح علم الرواية والدراية بالخصوص فى متناول الاغلبين ، مع العلم بأنه كان قبل عصر صعب المنال ، وأصبح الاتصال بالشيوخ والاخذ عنهم بالمشافهة أمرا ميسرا بعد ان كان منذ القرن الهجري الاول يتطلب اقتحام المشاق ومعاناة الاسفار والرحلات .

وبفضلها عبد طريق العلم ، ووثقت الاواصر الثقافية وغيرها بين المسلمين ، وألغيت السدود والحدود ، وربط المشرق بالمغرب حتى أصبحا بمثابة المدينة الواحدة بفضل ما قام به رجالاتها الاماجد من جولات واتصالات أدت فى النهاية الى تناسق فى الاعمال ، وتشابه فى المناهج والبرامج وتماثل فى النصوص والتشريعات ، واليها يرجع الفضل فى بلورة التعليم الاسلامي الجامعي وتطوره وتخصصه ورقيه اداريا ، وتربويا ، وهي المؤسسة التعليمية الاولى التي سبقت الى تطبيق كثير من النظريات التي تبحث عنها الانسانية الى الآن ، مثل حرية الفكر ، ومجانية التعليم ، والضمان الاجتماعي ، ونظام المدن الجامعية ، وتكافؤ الفرص والمساواة والمساهمة فى خدمة المواطنين والدفاع عن مصالح المسلمين وحقوق المظلومين وغير ذلك من الا الاغراض التي لم تطبقها الجامعات العصرية لحد الآن التطبيق المطلوب والمفيد (72) .

---

(72) غنيمة : الجامعات الاسلامية ص : 314 .